رحلة الحجاز

٣

﴿ باخرتا الحجاج — المنصورة والنجيلة ﴾

استأجرت الحكومة للحجاج باخرتي (المنصورة والنجيلة) وهما من أقدم سفن شركة البواخر الخديوية — وأما المحمل المصري فقد حمل مع أميره وعسكره على سفينة حربية انكليزية — ولما كنا آخر من جاء السويس من الحجاج علمنا من أصدقائنا الموظفين في هذا الشأن ان المنصورة أسرع الباخرتين وأنه لم يبق في الدرجة الاولى منها موضع لي وللسيدتين لأن وفد العلماء المرسل الى الحج على نفقة سلطان مصر المعظم قد ركب المنصورة قبل مجيئنا وتسابق اليها الناس وقد يوجد فيها موضع واحد لي ، وان النجيلة تفضل المنصورة بأنها أقل منها نودانا وانه يمكن أن نجد في الدرجة الاولى منها بيتا أو مخدعا (قمره) خاصا بنا. فنزلنا فيها مع رفيقينا في يوم الاحد لأربع بقين من ذي القعدة ، وقد علمنا بعد سفرها أنها أبطأ بواخر الدنيا سيرا قيل لنا انها تقطع ثمانية أميال في الساعة ولعلها لا تتم الستة الا بالجهد ، وهي قديمة وسخة ليس فيها ضوء كهربائي ولا أجراس ولا مقاعد للاستراحة الا كراسي المائدة في الدرجة الاولى ، ولكن المخدع الذي خصص لنا فيها واسع جدا قلما يوجد في البواخر الكبيرة مثله في سعته وهو معد لنوم ستة أو سبعة ، وفيه عدة نوافذ. ثم أن ربانها سالم افندي البدن من أحسن الناس أخلاقا وعناية بالحجاج ، وهو من أقدم المستخدمين بهذه البواخر وقد حج مرارا ، وطبيبها مهذب حسن المعاشرة وهو طليانى يتكلم بالعربية العامية بطلاقة ولهجته فيها سورية ، فنشكر لهذين الرئيسين في الباخرة حسن عشرتهما وعنايتهما بنا خاصة وبسائر الحجاج أيضا ، ولا نبخس خدم الباخرة حقهم من الثناء على حسن خدمتهم . ولعل باخرتنا كانت تفضل المنصورة فيما عدا سرعة السير. وقد زارنا في الباخرة قبل سفرها محافظ السويس ثم صار الى المنصورة لزيارة وفد العلماء السلطاني فيها

﴿ حجاج باخرتنا النجيلة ﴾

وأنسنا في الباخرة بصحبة كثير من ركاب الدرجتين الاولى والثانية وحمدنا صحبتهم وعشرتهم وأخص بالذكر منهم عالما من أكبر علماء القطر المصري وأديبا من أفضل أدبائه . أما العالم فهو الاستاذ الشيخ عبد الفتاح الجمل شيخ علماء بور سعيد وقد كنت أسمع له ذكرا حسنا فرأيته فوق ما كنت أسمع علما وفضلا وهديا وأدبا وانصافا في المذاكرة واستقلالا في الفهم ، وله مشاركة حسنة في التاريخ والادب ومعرفة أحوال العصر ، ولعله يندر وجود مثله في علماء مصر . وأما الاديب فهو محمد توفيق علي (اليوزباشي) في الجيش المصري ، وهو يفضل من نعرف من أدباء مصر وضباطها في الاخلاق الدينية والمحافظة على العبادات ، وكثرة النظم في ذم الفواحش والمنكرات . وقد كان معه والدته وهي امرأة تقية زكية الفطرة واتفق ان كان مخدعهما ملاصقا لمخدعنا فكانت والدتي وشقيقتي تأنسان بالمامها بهما وصحبتها لهما وهي أقل منهما دوارا ، وأكثر على مشقه البحر اصطبارا ، وقد حجت قبل هذه المرة . وكذلك كنت أنا آنس به ، فقد كنا أكثر الرفاق تلازما قلما نفترق الا في وقت النوم ، وكان أكثر حديثنا وسمرنا أول الصحبة في الشعر والادب وأقلهما في المسائل الدينية والعلمية والشؤون الاجتماعية ، الا اذا حضر المجلس الاستاذ الجمل فان الحديث يكون بعكس ذلك ، كما كان في أواخر العهد بالصحبة

وقد وزعت بعض نسخ المناسك على حجاج الباخرة قبل أن أقرأها وأصحح أغلاطها وبعضها بعد ذلك ، ولما علم الناس أنها بغير ثمن كثر الطلب لها حتى من الاميين فصرت أشترط على من يأخذها من القارئين ، ان يقرأها لمن يجاوره من الرفاق الأميين ، وكان انتشارها في المركب سببا لكثرة اختلاف الحجاج الينا للسؤال عن أحكام النسك ولاسيما واجبات الاحرام

كان سفرنا من مصر في أول الميزان وقد بدأ هواء الخريف المعتدل يطرد هواء الصيف الحار ويجليه عن أفق مصر ، وكأن ما كان يرحل منه عن مصر يذهب الى الحجاز ليحل محل هواء صيفه الذي هو أشد منه حرارة ، لذلك كنا كلما اوغلنا في الجنوب نشعر بأن جونا يرجع بنا القهقرى الى الصيف فكان عامة من في السفينة لا

يكادون يبرحون ظهرها الا الى حاجة غير النوم اذ كان جميع ركاب الدرجة الثالثة ينامون على الظهر وكذلك بعض ركاب الدرجة الثانية، وكان جل ركاب الدرجة الثالثة من أدنى طبقات المصريين قد دعهم الى الحج دعا ماكان من عناية الحكومة ببعث حجاج يحجون وحملها الاغنياء على مساعدة الفقراء على الحج بالمال، فوق ماكان من تسهيل ساثر الاسباب، فكان أكثرهم يقطعون أوصال الليل باللهو واللعب، والغناء والطرب، ومنه ما يسمونه في اصطلاح أهل الطرق بالذكر، وهو ان يقف جماعة يتغنون ويرقصون ويصيحون بأصوات منكرة: آهْ آهْ، أو: هو هو، أو حيّ حيّ، على صوت مغن يغنيهم ببعض الاغاني الحديثة أو الاشعار القديمة، فيكونون بذلك من الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا، وأقبح اللهو وأنكره وأقربه من غضب الله وأبعده عن مرضاته ما جعل دينا، فهؤلاء الذين يسمون أنفسهم ذاكرين لله يظنون أنهم خير من الذين يتغنون ببعض الاغاني لاجل التسلي عن فراق الاهل والولد مثلا، وما ذلك اللهو الذي سموه ذكرا الا معصية، وما هذا اللهو الا ظنوه حراما أو مكروها الا مباح، ولهم في ذكرهم هذا شر مكانا ممن قال فيهم بعض العلماء

أقال الله حين عبدتموه كلوا أكل البهائم وارقصوا لي

ولذكرهم هذا دون الذكر مع الغفلة أو الغيبة الذي قال فيه الشيخ محيي الدين ابن العربي

بذكر الله تزداد الذنوب وتطمس البصائر والقلوب

ومن مظاهر الدين الباطلة في هؤلاء العوام ما كان يمثله رجل منهم شر تمثيل: كنا نسمع كل ليلة صوتا منكرا أجش ينادي به صاحبه السيد البدوي بألقابه المشهورة في هذه البلاد، ويكثر من ذلك ويلح فيه بعد نوم الناس، متنقلا على ظهر السفينة من مكان الى مكان، وكثيرا ماكان يقف بالقرب من بعض نوافذ مخدعنا فيزعج السيدتين وينغص عليهما نومهما، ولما تكرر ذلك منه بحثنا عنه فاذا هو بزي أهل الطريق المتصنعين الذين يراءون الناس بلحاهم وثيابهم وحركاتهم وأصواتهم، فتلطفنا في وعظه واقناعه بترك ذلك الصياح ولكنه أقل منه ولم يتركه البتة.

هذا واننا لما حاذينا رابغ آذن ربان السفينة الحجاج ببلوغ ميقات الاحرام فتحققوا يحرمون، واننا نرجئ الكلام على الاحرام الآن لنذكره في هذه الرحلة مع

غيره من أعمال المناسك متصلا بعضها ببعض ، ونسترسل في وصف السفر فنقول :

﴿ الوصول الى جده ﴾

وصلت المنصورة الى ثغر جدة ضحوة يوم الاربعاء وهو التاسع والعشرون من ذي القعدة ولم يلبث ركابها أن نزلوا منها ، وأما باخرتنا النجيلة فوصلت عشاء ليلة الخميس فلم تستطع التقدم الى موقف البواخر من الميناء لكثرة الصخور الخفية هنالك فأرست في مكان بعيد عنه ، وانما دخلت الميناء وأرست فيه ضحوة يوم الخميس فكان تأخر ركابها عن ركاب أختها ٢٤ ساعة ، والسفن تُرسى على بعد شاسع من البر في ذلك الثغر لرقة الماء وكثرة الصخور ، فلما رأت الوالدة والشقيقة ذلك عراهما الغم لان الدوار يشتد عليهما في الزوارق الصغيرة ذات الشرع أو المجاذيف و يؤلمهما طول المسافة فيها ، وخافتا أن لا تصلا الى البر الا بحالة لا ترضيهما ، ولكننا لم نكد نستعد للنزول الا وكان صديقنا الكريم الشيخ محمد نصيف وكيل سيدنا الشريف الاعظم صاحب الحجاز[1] قد جاء الباخرة في زورق كهربائي أو بخاري (لنش) مع جماعة من سراة جدة وكبرائها لاجل استقبالنا ، وقد أخبرونا بعد السلام انهم قد نزلوا أمس للسؤال عنا في باخرة المنصورة ، ثم اننا بعد استراحة الزائرين نزلنا وأنزلنا معنا في الزورق ما خف من متاعنا وصغر حجمه وأرسلنا ما بقي في مراكب النقل الشراعية — وكان الرفيقان الشيخ خالد ومحمد نجيب افندي قد نزلا في بعضها ، — فسار بنا الزورق كالسهم فوصلنا بغاية الراحة ، ونزلنا ضيوفا مكرمين في دار صديقنا الكريم الشيخ محمد نصيف ، وهي دار فسيحة واسعة الحجرات كثيرة النوافذ ، تفيض عليها الشمس أشعتها من الشرق والغرب ، ويتخلل النسيم حجراتها من كل مهب ، فهي في الذروة من دور جدة ، وكان الهواء معتدلا في هذا الثغر ، لا يشتكى برد منه ولا حر ، وقد بلغني الصديق المضيف تحية سيدنا الشريف ، وصدور أمره العالي اليه بالعناية بنا ، وكان قد بلغ الديوان الهاشمي العالي موعد وصولنا كما بلغه مندوبه بمصر خبر سفرنا بالبرق ثم بلغ مضيفنا بمكة خبر وصولنا بالمسرة (التلفون) وتكلمت به مع

(١) يعلم القراء ان هذا وقع قبل مبايعة اهل الحجاز للشريف بالملك ونشر الرحلة بعد المبايعة لا يقتضي استعمال لقب الملك فيما يحكى فيها عما كان قبل ذلك

اخواننا محرري جريدة القبلة . وفي صبيحة اليوم التالي ورد على مضيفنا في البريد من المقام الهاشمي الاعلى رقعة شريفة هذا نصها :

نومرو ١٩٥

وكيل شرافة مكة المكرمة وامارتها بجده

معتمدنا الأعز

كتابك رقيم ٢٧ الجاري وصل وعلم ما تله لاسيما من خصوص السيد رشيد رضا فقد أرسلنا قبله و بتاريخه كان قصدنا نشعرك بالاستعداد لمقابلته بما يقتضي له من الحفاوة وللمعلومية تحرر في ٢٩ ذي القعدة سنة ١٣٢٤ شريف مكة وأميرها

الحسين بن علي

لم نكد نستقر في الدار الا وأقبل الزائرون المهنئون يفدون علينا أفرادا وجماعات وفي مقدمتهم الشيخ مصطفى فهمي معاون نائب الحضرة الهاشمية في جده جاء بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن سيادة رئيسه الشريف محسن معتذرا عنه بالاشتغال بشؤون المحمل المصري . وقد تذكرنا فتذاكرنا بعد التحية والسلام، فيما كان من تلاقينا أول مرة منذ بضعة أعوام ، ذلك انني زرت سورية عقب اعلان الدستور العثماني سنة ١٣٢٧ فأقمت فيها أشهرا ثم عدت الى مصر على سفينة فرنسية من شركة المساجري واتفق ان كان في هذه السفينة مصطفى بك فهمي هذا قاصدا بور سعيد للسفر منها الى الحجاز فرأى اسمي بين ركاب الدرجة الاولى ولم يرني على مائدتها ولا على ظهرها مع الركاب لانني أصبت بدوار خفيف لزمت لاجله مخدعي ولم يكن معي أحد فيه ، فسأل عني فدل علي فالتقينا وتعارفنا ، قال لي إن سيادة أمير مكة الجديد سيدنا الشريف حسين طلبني لأكون كاتب السر له — وكان موظفا بولاية حلب في عمل لا أذكره الآن — وانني لما علمت بوجودك هنا رغبت في لقائك واغتنام الفرصة في الاستفادة من رأيك فيما ينبغي لبلاد الحجاز من الاصلاح في عهد الدستور فان أميره الجديد لا بد ان يوجه همته الى إصلاح عظيم في هذه البلاد المقدسة وأنت أولى من يستنار برأيه في هذا الامر ... فذكرت له ما خطر في بالي في ذلك الوقت القصير من وسائل حفظ الامن ونشر العلم واصلاح حال البدو وسكة الحديد الحجازية ، وتواعدنا على المكاتبة في كل ما يتجدد من الشؤون بتجدد الاعمال ،

وقد بدأ بالوفاء بوعده بعد وصوله الى مكة المكرمة بمدة وجيزة فكتب الي كتابا ذكر فيه انه عرض ماسمعه مني من الآراء على سيد الجميع فصادف القبول والارتياح ، وقد أجبته بما اقتضته الحال ، وكان من غرائب عهد الدستور انني أرسلت اليه كتابا مسجلا فيه كلام يتعلق بخدمة الدولة وتمكين سيادتها في البلاد العربية فأعيد الي هذا الكتاب ولم توصله اليه ادارة البريد التركية ولا يزال عندي وقد وعدته باطلاعه عليه عند ما التقينا في جده لأنه كان في أوراقي ولكن لم يتيسر لي اخراجه في ذلك الوقت

أقمنا في جده من ضحوة يوم الخميس الى أصيل يوم السبت ولم أخرج من الدار في هذه المدة الا الى صلاة الجمعة في أقرب المساجد اليها، وقد سمعنا خطيب المسجد يدعو للسلطان محمد رشاد في خطبته كالعادة. ولم أرد الزيارة لأحد لان الزائرين كانوا لا يكادون يفارقوننا الا وقت النوم ، وكان جل حديثنا معهم في المسائل الدينية والعلمية ، والعبرة الاجتماعية والساسية ، وانما اختلست منهم ساعات متفرقة كتبت فيها نبذة من التفسير المنار ومكتوبات أرسلتها الى مصر

كنت أتمنى لو ملكت وقتا أرد فيه الزيارة للزائرين الكرام فلما غلبت على الوقت قلت لعلي أملك بعد العودة من مكة المكرمة ما لا أملكه الآن ، ولكن وقت العودة كان أضيق كما يعلم في محله، ولذلك طلبنا من صديقنا ان يكتب الينا أسماءهم لنؤدي لهم الشكر بالكتابة ، جزاء ما استحقوه علينا من الزيارة ، فكتب الينا زهاء ثلاثين منهم وهم الذين تذكرهم فمن أهل العلم منهم الاساتذة الشيخ محمد حسين ابراهيم والشيخ أحمد الزهره والشيخ أحمد طه رضوان والشيخ اسحق بن حسن العباسي والشيخ محمد سعيد دردير خطيب مسجد عكاش ،

ومن رجال الحكومة عدا من ذكرنا مدير الشرطة مساعد اليافي ومدير الصحة الدكتور امين معلوف وقائد حامية الثغر عبد الرؤف عبد الهادي ورئيس كتاب الحجر الصحي رشيد باغفار ومحمد راغب الصنعاني من الكتاب ، وحسين ملوخية مأمور نقل البريد، وكل هؤلاء يطلق عليهم لقب الشيخ للتكريم، وقد أعجبني من الدكتور معلوف وعبد الرؤف ومساعد زيهم العربي فكانوا به أبهج في عيني منهم في زيهم الافرنجي التركي

ومن كبراء الوجوه والتجار في الثغر الشيخ سليمان قابل رئيس البلدية والمشايخ زينل علي رضا وعبدالله علي رضا ومحمود زاهد ومصطفى درويش عبد ربه ومحمد بن احمد الهزاز ومحمد باحفظ الله وعبد الله المحمد الفضل ومحمد العبد الرحمن الفضل

ومن أصحاب الحرف ووكلاء الاعمال المشايخ حمزه جلال نقيب وكلاء المطوفين وحسين بحيري من المطوفين وبكر وخميس وسليمان عزابه من وكلاء المطوفين ومحمد سعيد كيال شيخ السماسرة وعبد الرحمن فائق من كتاب شركة البواخر العثمانية

فنشكر لهؤلاء ولسائر من تفضلوا بزيارتنا (كالشيخ عبد الرؤف الصبان من طلبة دار العلوم المصرية وقدفاتنا ذكره مع علماء جدة) مودتهم وفضلهم، وقدعلموا ما حال دون ما كنا نبغي من زيارتهم، وان التقصير من الزمن لامنا، والعذر عند كرام الناس مقبول

﴿ عبرة للمعتبرين * وجناية المفسدين على المصلحين ﴾

أظهر لي صديقي المضيف سروره وارتياحه لرؤيته إياي بثوبي الاحرام (الازار والرداء) وقد أثار عجبي وحزني أنه ظن أن من المحتمل أن أترخص بترك لباس الاحرام اعتمادا على الفدية. وقال لي لو رأيتك لابسا ثياب الحل لعزمت عليك أن لا تنزل جدة الا بلباس الاحرام، لئلا يظن بعض الناس انك من قبيل هؤلاء المتهاونين الذين يجيئون هذه البلاد غير محرمين بحج ولا عمرة، وذكر لي شيئا يسيرا مما عاملته بعد ذلك تفصيلا من حال بعض الشبان الذين جاؤا الحجاز ودخلوا مكة المكرمة نفسها، وكأنهم لا يعرفون شيئا من مكانتها، ولا حق بيت الله وشعائره فيها، فدخلوها غير محرمين، ومروا ببيت الله تعالى غير طائفين ولا مصلين، وترددوا بين الصفا والمروة غير ساعين ولا مرملين، فكانوا مضغة في أفواه الحجازيين، ومثالا مشوها لشبان المدنية المصريين، وحجة قاطعة لألسنة الذين يلغطون منهم بتكفير الاتحاديين، لانهم يساوونهم في ضلالتهم، وهدمهم لشعائر ملتهم، ولكنهم يقصرون عنهم في الغيرة والاخلاص لأمتهم، والتفاني بخدمة دولتهم، وبذل النفس والنفيس في احياء جنسيتهم

لقد احزنني وامضني وساءني وآسفني ماقاله هذا الصديق الذي أعتقد أنه ما أحبني في الله تعالى الا لاجل اعتصامي بديني وغيرتي عليه، ودعوتي الى احياء كتابه وسنته. وقلت في نفسي يا سبحان الله ! اذا كان مثل هذا الحب الحسن الاعتقاد قد بلغ

سوء تأثير بعض اولئك الشبان في نفسه أن تصور ذهنه في مثلي جواز دخول جدة بغير ثياب الاحرام ولو على سبيل الرخصة ، والقيام بما يجب بدل ذلك من الفدية ، فكيف يكون رأيه واعتقاده فيمن لا يعرف لأحد منهم حظا من علم أو عمل ، ولا يحفظ لاحد منهم في قلبه بعض ما يحفظ لي من الظن الحسن ؟

وقلت له محاولا كتمان اسفي ومكابرة امتعاضي : لو كان هذا اللباس (لباس الاحرام) مستحبا لا واجبا لما تركته تهاونا ولا إيثارا لما في اللباس المعتاد من الحشمة أو الزينة أو الرفاهة ، وأنا أرجو أن اكون من أعلم الناس بفوائده واحرصهم على ادراكها بالعمل ، ولو تركته لما استطعت انت ولا أحد من الناس ان يقنعني بإتيانه ، لانني لا أتركه — لو تركته — الا لعذر شرعي ملجئ ، كأن اعتقد أنه يضر بصحتي ضررا يجعل الواجب محظورا ، وأكون بلبسه عاصيا لله تعالى لا طائعا . وأما نظر الناس فلا أبالي به في أمر الدين ، وأعوذ بالله ان أكون من المراثين ، بل تعودت — ولله الفضل والمنة — ان لا أتصنع للناس ولا ادهن لهم ولا اتحرى مدحهم ولا أخاف انتقادهم في المصالح الدنيوية والامور العادية بحيث يحملني ذلك على ترك شيء أراه حقا أو مصلحة أو فعل شيء أراه باطلا أو مفسدة ،

وأقول مستطردا إنه قد عاداني كثير من الناس في هذا الخلاق وآذوني لأجله ولم أوذ أحدا منهم ، وأرى انني غير مغبون معهم ، وأن هذا الخلاق خير لي من مودتهم ، ولا سيما من أعرف منهم سوء النيـة ، وفساد الطوية ، ولكن يسوءني أنه لا بد ان يوجد في أمثال هؤلاء من هو حسن النية يُخدع بالشبهة أو يقلد غيره فيما لا علم له به ، وأنه يعسر العثور على هؤلاء والتناصف معهم باقتناع كلامنا بحسن نية الآخر واخلاصه ، ورجوع المخطئ الى رأي المصيب ان ظهر صوابه ، وعذره إياه فيما لم يظهر له . ولم اذكر هذا التفصيل كله للصديق وانما خطر في بالي عند الكتابة ان بيانه مفيد لأن مثله يقع لكل صادق مستمسك بعروة الحق لا يحابي ولا يداهن الناس فيه .

ومن دقائق هذا البحث ان الانسان كثيرا ما تغشه نفسه وتخدعه بتسمية العجب والكبر والاصرار على الهوى اعتصاما بالحق وصلابة فيه وقلة اكتراث بالمبطلين ، فينبغي للمخلص في اعتقاد نفسه ان يمتحن نفسه ويناقشها الحساب فيما يعاب به وينتقد منه ، وهذا أمر عسير غير يسير ، اذ يقل في الناس من يبلغ من يحب ما ينتقده

هو أو غيره عليه ويطلعه على عيوب نفسه ، كما يقل فيهم من يسلم من غيبة صديقه . واكثر مايبلغ الناس من الانتقاد عليهم اوانتقاصهم ،ماينقل اليهم عن خصومهم واعدائهم ، وقل من ينظر في مثل هذا نظر الروية والانصاف فيستفيد منه ، وانما يستحوذ على الاكثرين عند سماعة ثوران الغضب وخواطر الدفاع أو الانتقام . واحمد الله تعالى أن وفقني في ريعان الشباب واوائل العهد بالرشد الى حمل اصدقائي على ارشادي الى عيوبي ومكاشفتي بما يرونه أو يسمعونه من الانتقاد علي ، ولا ازال أسأل عن ذلك من أتوسم فيه النصح وان كان اصغر مني سنا واقل تجربة ومعرفة ، واني لاحوج الى نصيحة واحدة استعين بها على اصلاح نفسي ، من سبعين مسألة استعين بها على إصلاح غيري . وقد توجد هذه النصيحة عند عامي يزيد ماعندي من العلم والاختبار على ماعنده منهما سبعين ضعفا ، فيكون أعلم مني بما أنا احوج اليه مما أفضله به

واما ما اكتبه فاني أطالب الناس بالانتقاد على مايرونه منه خطأ أو باطلا ، أطالبهم بذلك كتابة بما انشره في المنار كل عام ، وكل مايكتب الي من ذلك أنشره في المنار على حسب الوعد الذي أعد به عند طلب الانتقاد ، فان تعمدت اغفال شيء — وذلك نادر جدا — فانما أغفله لتكريم غيري ، لا لإخفاء عيبي ، ولا اذكر من ذلك الآن الا رسالة ارسلها الي صديق مخلص من اشهر علماء الاقطار هفا فيها هفوات تزري بقدره لو نشرت ونقدت وان تلطف الناقد جهد الطاقة ، وبالغ في الادب حتى بلغ حد الاستطاعة ، فرأيت من الوفاء له ان اراجعه فيها ، واستأذنه بنشرها بعد التنبيه لما فيها ، فلم يأذن . من أجل هذا أعتقد كما يعتقد جمهور قراء المنار أن آية الاخلاص في انتقاد ماينشر فيه ان يكتب ويرسل اليه ، لا أن يقال أو ينشر في غيره من الصحف ، فان نشر النقد في المنار نفسه هو الوسيلة لتمحيص الحقيقة عند من اطلعوا على الكلام المنتقد فيه ، وانما فائدة الانتقاد عند المخلص فيه بيان الحق والصواب لمن ينتقد عليه باطله اوخطأه ، ولمن اطلع على ذلك وخشي ان قد يكون قد ضل به وهم قراء كلامه ، وأما انتقاد ذلك في بعض البيوت او الأندية او الصحف التي لا يطلع اكثر قرائها على مايدعي المنتقد انه باطل وضلال فهو إذاعة للباطل ضارة لايحمل عليها الا هوى النفس ، وذلك من شأن المرائين المفسدين ، لا من شأن الصادقين المصلحين ،

وقد ذكرني ماقاله الشيخ محمد نصيف في مسألة الاحرام والسبب الحامل له على هذا القول ما انبأني به اخي في الله عز وجل العلامة الشيخ محمد مكي بن عزوز التونسي في الاستانة سنة ١٣٢٨ قال رحمه الله تعالى ماحاصله : كتب الي أحد اخواني من علماء تونس بعد العلم بتلاقينا هنا : اننا نعرف قيمة السيد محمد رشيد رضا العلمية ومقاصده الاصلاحية من مناره ... ولكننا نرى بعض الذين يلهجون بطلب الاصلاح حتى الديني منه لاتنطبق أعمالهم على اقوالهم فهم لا يؤدون فرائض الدين ولا يقيمون أركانه فضلا عما دونها من آدابه واحكامه ، فكيف رأيت صاحب المنار بعد المعاشرة والاختبار؟ قال فكتبت اليه بعض مارأيت ومنه ان زيارته الاولى لي في داري كانت بعد العصر فصلى صلاة العصر عندي وكنت قد صليتها قبل قدومه منفردا فأعدتها مقتديا به ، فلم أر صلاة أكمل انطباقا على السنة من صلاته . وزرته مرة مع بعض الاخوان فقدم لنا الشاي ولم يشرب معنا لانه كان صائما . الخ

أليس من آية ضعف الدين ، وابتلاء الصادقين بالمنافقين ، وغمة الامر على المؤمنين ، ما دار من المكاتبة بين العالمين التونسيين في الصلاة والصيام، ومن الحديث بيني وبين محمد نصيف في مسألة لباس الاحرام ؟ بلى وانني تذكرت في هذه اللحظة مسألة اخرى من هذا القبيل اذكرها اتماما للعبرة

دخلت مرة على الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد في نهار رمضان فرأيت عنده ابراهيم بك المويلحي جالسا يدخن بلفيفة من التبغ (سيكارة) فذكر المنار ومنع الحكومة الحميدية إياه من دخول البلاد العثمانية فجعل المويلحي يرميها بالجهل ويقسم ان المنار خير لها من قبلق من العسكر لما فيه من خدمة الدين الذي لا تنهض الامة بدونه، وأطنب في مدح الدين وتأثيره في الاصلاح وعدم الرجاء في نهضة المسلمين بدون ما يدعو اليه المنار من الاصلاح الديني. علم بهذه الواقعة ابراهيم بك الهلباوي فاشار اليها في مقالة ارسلها الى المؤيد من أوربة يذكر فيها بعض عبر السفر، مستطردا الى العبرة بها على سبيل التشبيه والمثل، قال في وصف رجل — على ما أذكر — : كذلك الرجل الذي كان يكلم صاحب المنار في مدح الدين ... في شهر رمضان ولفيفة التبغ بيده يدخن بها — اوما هذا مؤداه — ففهم بعض الناس من عبارته ان الذي كان يدخن هو صاحب المنار المخاطب لا المتكلم

الذي يخاطبه، وان كان المتبادر من العبارة العكس وهو الذي يجري عليه الكتاب عادة في مثل هذه المسألة ، اعني أنهم لا يصرحون باسم من ينتقدونه في مقام الاعتبار، فاذا صرح احدهم باسم المنتقد عليه أو بوصفه بما يعرف به لهوى له وقصد الى ذمه، لاتواتيه الجرائد المعتبرة (كالمؤيد) ولا تنشر ذلك له، فلوان صاحب المؤيد فهم من العبارة مافهمه بعض الناس اوخطر في باله انه قد يفهم منها ذلك لتصرف فيها بما يحول دون هذا الفهم

بلغني و بلغ صاحب المؤيد رحمه الله ذلك في وقته فلم نحفل به ، وقال هو ان هذا الفهم لايخطر الا ببال بعض العوام ، وهو لا يؤثر أدنى تأثير في سمعة صاحب المنار حتى عند من لا يعرف مكانته من هداية الدين، واذا كتب شيء لإيضاح الحقيقة ربما كان سببا للقيل والقال. ثم علمنا ان هذا الفهم قد سبق الى اذهان بعض الناس في نائي الاقطار: جاءني يوما برقية من بمباي الثغر الهندي المشهور من محمد باشا عبد الوهاب شيخ دارين أحد ثغور نجد الجنوبية يقول فيه انه مسافر الى السويس في باخرة كذا بقصد الحج، فلما كان موعد وصول الباخرة رأيت من المروءة أن أذهب الى السويس للقائه وان لم أكن أعرفه أو أعرف عنه شيئا من قبل، فوافيته فيها وكان معه جمهور من العرب ومسلمي الهند جاء بهم ليحجوا على نفقته. فقدم لنا لفائف التبغ (السكاير) على حسب العادة فاعتذرت، فعرضوا علي النارجيلة (الشيشة) فاعتذرت أيضا. فسألني الباشا عن السبب فقلت اني أكره هذا الدخان وقد حفظني الله تعالى من اعتياد التدخين في الصغر، فلا أتكلفه بعد العلم بضرره في الكبر، فقال اذا أنت لم تدخن في حياتك قط، قلت الامر كما ذكرت ، فالتفت الى أصحابه وذكرهم بما دار من الخلاف في عبارة الهلباوي وكيف ظهر ان الصواب ما قاله من نزه صاحب المنار عن ان يكون هو المفطر في رمضان . على ان المسألة مسألة مجاهرة بالفطر ، وهي أفحش من الفطر في السر ، لما فيها من سوء القدوة ، وانتهاك الحرمة ،

بعد هذا الاستطراد الطويل أقول ان بعض شبابنا الذين أفسدت المدارس التركية أو الافرنجية عقائدهم ، وشوهت حرية الكفر والفسق أخلاقهم وآدابهم ، ولم يكن لديهم من التجربة والخبر ، ولا من حكم العقل وصحة الفكر ، ما يفرقون به بين الحجاز و بين الاستانة ومصر ، لم يقفوا عند حد ترك الاحرام ، قبل دخول

البلد الحرام ، وترك الطواف والصلاة والصيام ، بل تجرأ احدهم على التصريح بالاعتراض على القرآن. وتجرأ آخر على الطعن في بعض الخلفاء الراشدين، بل على ما هو أكبر من ذلك من الضلال المبين ،

من اجل هذا صار بعض الحجازيين يسيء الظن بجميع افراد هذه النابتة الجديدة و بعضهم يجعل سيرة هؤلاء الغاوين حجة حتى على من ظهرت عدالتهم من الوافدين، أما طبيعة الحرم بل طبيعة جزيرة العرب، فلا تطيق الصبر الطويل على إلحاد الملحدين، ولا على توسيد الاعمال الى الفساق المجاهرين، وأما ماعدا الجزيرة من البلاد العربية فستحذو نابتتها حذو النابتة التركية ، وان فيها من يود تقليد جمعية الاتحاد ، في السياسة والعصبية والالحاد، ولكن آمالهم أدنى من آمالهم ، ومآلهم شر من مآلهم ، فانهم لا يرجون ان يكون لهم دولة كالدولة العثمانية يغلبون على أمرها، و يعتزون بقوة مالها وقوة جندها، وسيظهر حالهم ومقصدهم ، وما يكون من تأثيره في بلادهم وأمتهم.

تقريظ المطبوعات الجديدة

كتاب الحرب الاوربية — أو فلسفتها —

لا أعرف أحدا من العامة ولا من الخاصة يصدق جميع ما ينشر في الجرائد من أخبار الحرب والسياسة ولا أكثره ، وانما يصدق الناس ما يوافق عقولهم ، وآخرون ما يوافق أهواءهم . وأهل البصيرة يعلمون ان أصحاب الجرائد في بلادنا لا يعرفون جميع الحقائق التي يعرفها أصحاب الجرائد في أوربة ، وانه لا يباح لهؤلاء ولا لأولئك ان ينشروا كل ما عرفوا ، فان ما ينشر في الجرائد في هذه الحال يراد به عند جميع الامم ما يترتب عليه من التأثير ، لا تمحيص الحقائق ولا تدوين التاريخ ، وانما يرجى ان تدون الحقائق بعد الحرب بسنين ، بأقلام أركان الحرب وأحرار المؤرخين . وأجدر الناس باظهار الحقائق في كل زمن هم الحكماء ورجال الاصلاح الاجتماعي والتحقيق التاريخي، واذا قلت ان (غوستاف لوبون) هو أشهر حكماء الاجتماع وفلاسفة التاريخ في هذا العصر لا أكون مبالغا، فانه قد اشتهر في الشرق كما اشتهر في الغرب بما تُرجم من كتبه الاجتماعية باللغات الشرقية ككتاب تطور الامم وكتاب